الحر والظل لا يعقل انها تبقى قفراً قاحلاً بعد ان تخرقها سكة الحديد وتسعى عاصمتها بغداد وراء موارد الثروة . ولا بدَّ من ربح وافر لتلك الطريق مما تنقلهُ من بضائع الشرق والغرب ولكن اذا عاد الى البلاد سابق خصبها وتدفقت منها الخيرات زاد ربحها ربحاً وتحققت فيها آمال الذين انشأوها وخالج نفوسهم احياء البلاد لما اشاروا بها

انتهى كلام السر وليم ولكس ملخصاً وقد الحق خطبتهُ برسوم كثيرة نقلنا واحداً منها لكي يتضح للقارىء مواقع الاماكن التي ذكرها واضفنا اليهِ اسماء اماكن أُخرى اتماماً للفائدة

شياطين تولستوي

تولستوي فيلسوف روسي من اشهر كتَّاب العصر كما لا يخفى وقد كتب الآن في ذم التمدُّن الحاضر وعدَّ اركانهُ كلها اضاليل وحبائل نصبها ابليس لاقتناص نفوس الناس . ومفاد ما كتبهُ ان ابليس جلس يوماً في دركات جهنم آسفاً لانهُ اضاع ملكهُ في هذه الدنيا بمجيء السيد المسيح وتخليصهِ لبني آدم . ومرَّت عليهِ السنون واليأس يمزق احشاءهُ لكن اعوانهُ لم ييأسوا يأسهُ فطافوا في الارض يكيدون المكايد للناس ثم عادوا وبشائر الظفر في وجوههم فقال واحد منهم انني زرعت بين الناس بزور الشقاق الديني واقنعت كل فريق منهم انهُ على هدًى وغيرهُ على ضلال ولا بدَّ لكل فريق من ان يحارب الفريق الآخر ويقتلهُ لكي يقنعهُ بفساد معتقدهِ وقد تركتهم والحيلة ناجعة فيهم على ما يرام ولكنني خشيت ان ينتبهوا لها فيفسد عليَّ قصدي ولذلك اخترعت لهم ما يسمَّى بالكنيسة او الجماعة حتى اذا التقوا اعتمادهم عليها اطمأنَّ بالي من قبلهم . فقال لهُ ابليس ماذا تعني بالكنيسة او الجماعة . وكأنهُ استاء لان بين اعوانهِ واحداً يعرف ما لا يعرفهُ هو . فقال ذاك اني اعني بذلك الناس الذين يستشهدون بالله على صدق ما يقولون اذا عملوا ان الناس لا يصدقون اكاذيبهم . ثم اخذ يشرح ما فعلتهُ الكنائس والجماعات من اضطهاد بعضها بعضاً . فاستغرب ابليس ذلك وقال لهُ ولكن ماذا فعلوا بالوصية القائلة كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضاً بهم . فقال سمعت منهم قصَّة يتداولونها وهي ان ساحراً اراد ان ينقذ رجلاً من شر ساحر آخر فحوَّلهُ الى حبَّة حنطة فحوَّل الساحر الآخر نفسهُ الى ديك واسرع اليها ليلتقطها فسبقهُ الساحر الاول وافرغ عليها اردبًّا من الحنطة فتعذَّر على الديك الاهتداء اليها وتعذَّر عليهِ ان يأكل حبوب الحنطة كلها لكي يأكلها في جملتها . وقد نصحتُ للناس ان يفعلوا مثل ذلك فغطُّوا هذه الوصيَّة بالوف من الوصايا والتعاليم حتى

تعذَّر عليهم اكتشافها بينها وتعذَّر عليهم حفظها كلها

فتبسَّم ابليس وقال له احسنت واجملت وضجَّ الابالسة كلهم ضحكاً وطرباً

ثم قال اذاً لا يزال حال الارض على ما كان عليه جرائم ومنكرات ولصوص وقتلة . فصعد اليه شيطان كبير الهامة في رأسه قرنان اعقفان وقال نعم ايها المولى وقد اعدناها كما كانت لما القينا في قلوب بني اسرائيل ان يملِّكوا شاوول عليهم وقلنا لهم خير لكم ان يسلبكم رجل واحد من ان يسلب بعضكم بعضاً فنشوا الشرائع والقوانين التي يسود بها اهل البطالة والكسل وهم الفئة الصغرى على اهل الجد والاجتهاد وهم الفئة الكبرى واغرينا كل امَّة بانها افضل من غيرها فوقع بينهم العداء والبغضاء ونشبت الحروب وتفاقمت الخطوب

فسرَّ ابليس بهذا الخطاب والتفت الى مخترع فن الاجتماع (السسيولوجيا) وسمع شرحه له وتعديده شروره ومنكراته فاثنى عليه جميلاً ووعده بالجزاء . وحينئذٍ ضجَّ جمهور من الابالسة قائلين يظهر انك نسيتنا ولم تفطن لنا . فقال لهم هاتوا اخبروني بما فعلتم

فقال واحد منهم انا شيطان الصناعة وقال آخر وانا شيطان تقسيم الاعمال . وقال آخر وانا شيطان الطرق والمواصلات . وقال آخر وانا شيطان الطباعة . وقال آخر وانا شيطان الفنون الجميلة . وقال آخر وانا شيطان الطب . وقال آخر وانا شيطان التهذيب وعلم جرًّا . وحاولوا الكلام كلهم معاً فانتهرهم وقال تكلموا واحداً واحداً . فقال شيطان الصناعة اني علَّمت الناس ان يكثروا المصنوعات ويسرعوا في عملها فصاروا يقضون العمر في عمل ما لا يستطيع مبتاعه استعماله ولا يستطيع مستعمله ابتياعه

وقال شيطان تقسيم الاعمال اني جعلت الناس كالآلات الصماء لا يستطيع الواحد منهم ان يعمل اكثر من عمل واحد فبقوا عبيداً لاصحاب المعامل

وقال شيطان الطرق والمواصلات لقد علَّمت الناس ان لذة العيش بالتنقُّل فصاروا يباهون بمسابقة الطيور في الانتقال من مكان الى آخر

وقال شيطان الطباعة اني علمتهم ان ينشروا اتخف الآراء على العدد الاكبر من القراء

وقال شيطان الفنون الجميلة ان علمتهم ان يزوِّقوا الرذائل حتى تغري النفوس وتخلب الالباب

وقال شيطان الطب اني علمتهم ان غايتهم الكبرى صحة ابدانهم فتركوا نفوسهم ونفوس غيرهم

وقال شيطان التهذيب اني رسَّخت في اذهانهم ان التهذيب يقوم باستحسان آثار الصناعة وتقسيم الاعمال والطرق والمواصلات والطب والطباعة ومَن نال هذا التهذيب فقد بلغ الكمال ولم تعد به حاجة الى شيء

فشكرهم ابليس واثنى على همتهم ثم بسط جناحيه ونهض فاجتمعوا حولهُ وامسك كلٌّ منهم بذنب الآخر وجعلوا يطوفون بهِ راقصين وهم يطنزون ويضحكون وهو يرقص في وسطهم طرباً والناس على الارض يبكون ويتحجبون ويصرّون باسنانهم . انتهى ملخَّصاً

وفلسفة تولستوي على ما فيها من الغلو في تقبيح اعمال الناس لا تخلو من الحقائق ولكن مَن قرأ تاريخ العصور الخالية ورأى مقدار الضنك الذي احتملهُ الانسان من الانسان . مَن نظر في الصورة المنقوشة على هياكل مصر وبابل واشور ورأى الملوك تدوس الاسرى بسنابك خيلها وتمزق مفاصلهم بالدهق . مَن قرأ تاريخ المماليك وما كانوا يفعلون منذ اقل من مئتي عام . مَن قرأ تاريخ ديوان التفتيش وما فعل من الفظائع باسم الدين . مَن رأى ذلك كلهُ لا يسعهُ ان ينكر ان ظلَّ مملكة ابليس قد تقلَّص من هذه المسكونة وان الناس لم يكونوا في عصر من العصور ارغد عيشاً منهم الآن . ولا بدَّ من ان يزيدوا تعقُّلاً فيطرحوا كثيراً مما هم في غنًى عنهُ ولا فائدة منهُ سوى تكثير التعب والضنك . وتبقى الحروب من آثار القرون الغابرة لكن وطأتها تخفُّ رويداً رويداً وشرورها تقلُّ الى ان تزول . وسيرى صغار القرَّاء ذلك قبل انقضاء عشرين او ثلاثين عاماً . وما حسبهُ تولستوي من اعمال الشيطان انما هو السبيل الطبيعي الذي سار فيهِ الانسان حتى تمكن من الوصول الى ما وصل اليهِ الآن . وفي هذا السبيل كثير من المعاثر والمخازي ولكن مصدرها ليس من الشيطان بل من الجهاد العام الذي تشترك فيهِ الاحياء جمعاء نباتاً كانت او حيواناً او انساناً . الجهاد الذي لا بدَّ منهُ للارتقاء فتجد نبات الحقل يزاحم بعضهُ بعضاً ويتخاطف القوت من التراب والهواء ويعتدي بعضهُ على بعض حتى يبقى القوي ويهلك الضعيف . وانواع الحيوان من الميكروبات الصغيرة الى الانسان سيد المخلوقات جارية هذا المجرى تسابق وتتساجل ويأكل بعضها بعضاً ولا تشفق على ضعيف ولا ترحم متألماً . تدخل الميكروبات بدن الانسان وتبتليهِ باشد الآلام ولا تبالي لان معيشتها غرضها الوحيد من الحياة . ويصطاد الباشق العصفور ويمزق بدنهُ ويأكلهُ ولا يسمع صراخهُ ولا يرحم فراخهُ . ولا يقلُّ فعل الانسان عن ذلك فيذبح الخروف امام امهِ ويصطاد السمك ويشويهِ حيًّا ويدوس النمل والدود كانهما من تراب الارض . سنة الله في خلقهِ بل سنة الكون التي سنها موجود الكون واخضع لها كل ما فيهِ